

الْفَضْلُ السَّنَائِعِ عَشْرِينَ

التفكير والاعتبار

تلك عبادة قلبية عظيمة الأثر، بالغة النفع، فهي غذاء للفهم ونور للبصيرة، وسبيل للسداد والاستقامة، وزاد العقل وزكاته، ومفتاح العلوم والفقه، وبها تكون عظة القلب، وانتباهة الفؤاد، وبقظة الروح، وانسراح النفس، والعجيب أن قاعدة عريضة من المسلمين يجهلون حقيقتها وثمرتها بالرغم من كثرة الآيات والأدلة الآمرة بها والدالة على عظيم نفعها، وجليب شأنها، وبالغ أثرها في الأفتدة والعقول، إنها طريق قريب قويم لإعمار القلوب بالخشية والإنابة، والخشوع والذل والاستكانة. فله ما أعظم نفعها! دعونا نعيش معها وبها، ونحرك في النفوس معانيها وحقائقها؛ لعلها تسارع إليها وتحيا عليها.

حقيقة التفكير

التفكير لغة: تردد القلب في الشيء يقول ابن منظور: والفكر التأمل وإعمال الخاطر في الشيء وقال الجوهري: التفكير التأمل^(١). **وأما التفكير اصطلاحاً:** فهو التأمل في الشيء لإدراك حقيقة مطلوبة يقول ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: اعلم أن التفكير طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم بأمر هو حاصل منها هذه هي حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مواد تكون مورداً للفكر استحال؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، فالتفكير ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه^(٢). ويقول: التذكر والتفكير منزلان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكيره على تذكره وبتذكره على تفكيره حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتح العليم قال

(١) «لسان العرب» (٥/٦٥).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/٣٣٠) ط. التوفيقية.

الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير، وبالتفكير على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت^(١) وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: شغل العقل التفكير والنظر في عواقب الأحوال والاستدلال بالشاهد على الغائب^(٢).

ثمرات التفكير

للتفكير ثمرات عظيمة يثمرها ويملاً القلب بنفعها ومنها:

١- امتثال لأمر الله جَلَّ جَلَالُهُ:

لقد أمر الله عَزَّجَلَّ عباده بالتفكير وحثهم عليه فقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ [٨-٩].

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْفَىٰ وِفْرَدَىٰ ثُمَّ نَتَفَكَّرُوا﴾ [سَبَأًا: ٤٦].

٢- المتفكرون هم أولو الأبواب:

أهل التفكير والاعتبار هم أصحاب العقول الذكية، والقلوب الواعية والنفوس الزاكية الذين يتفكرون ويتذكرون بما يرون من خلق الله وبديع صنعه وعظيم حكمته ودقيق تدبيره، فتمتلئ قلوبهم بتعظيم الله وتمجيده وعبوديته وتوحيده قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١١٠]. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ١٩٠-١٩١]. وقد ورد عند البخاري ومسلم

(١) «تهذيب المدارج» ص [٢٣٧].

(٢) «صيد الخاطر» [٤٣٦] ط. دار الحديث.

من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: بت ليلة عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أهله ساعة، ثم رقد فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [التَّوْبَةِ: ١٩٠].

ثم قام فتوضأ واستن^(١) فصلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلي الصبح^(٢).

٣- الانتفاع بالآيات إنما يكون للمتفكرين؛

لقد ضرب الله الأمثال في كتابه حتى يعقلها عباده وأجدر الناس بالانتفاع بهذه الآيات والأمثال والعظات هم أهل التفكير والاعتبار قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنُونٌ وَعَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُضِضَلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرَّحْمَانُ: ٤]. وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الْحَشْرِ: ٢١]. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

[البَقَرَةِ: ٢١٩]

٤- التفكير يبعث إلى الطاعات ويزجر عن السيئات؛

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الْحَجَّ: ٤٦]. يقول القرطبي: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كفار مكة فيشاهدوا هذه القرى فيتعظوا ويحذروا عقاب الله

(١) استن أي: تسوك.

(٢) رواه البخاري برقم [٤٥٦٩]، ومسلم برقم [٧٦٣].

أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم ﴿ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن^(١).

قال بشير: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

وقال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: التفكير في الخير يدعو إلى العمل به^(٢).

أيها الإخوة، من تفكر في ثواب الطاعة وما تثمره من طمأنينة وسعادة وانسراح صدر ونعيم مقيم في الآخرة سارع إليها وحرص عليها، وعمل بها وداوم عليها ومن تفكر في عاقبة المعاصي وما تعقبه من ندامة وحسرات، وكدر وهم وغم انزجر عنها واحترس منها، وبهذا يعلم أن التفكير مفتاح خير عظيم يثمر للعبد كل ما يعود عليه بالنفع في دنياه وأخراه، وإذا صح التفكير أثمر البصيرة النافذة والعلم الراسخ والهداية الراشدة، والاستقامة الرشيدة.

٥- التفكير يورث محبة الله وزيادة الإيمان؛

التأمل في النعم والوقوف على إحسان الله للعبد ولطف الله به ورحمته له وفضله عليه يورث العبد المحبة لربه، ويجدد تلك المحبة ويزيدها كل آن كلما تفكر وتأمل، ويزداد بذلك يقينه وإيمانه؛ لأن التفكير يفتح عين القلب وبصيرته على حقائق عظيمة لم يكن من قبل يراها ويعلمها فإذا حصل ذلك العلم زاد الإيمان وانبعثت الجوارح بجهد واجتهاد إلى طاعة الله جَلَّ جَلَالُهُ، إن التفكير يسري إلى القلوب فيوقظها، ويثمر حقائق عظيمة تعيها القلوب وتعملها، وتكشف عن معانٍ نبيلة تحيا بها الأرواح والنفوس وتعيش بها وعليها، التفكير سبيل لمعرفة عظمة الله وجلاله، وضعف الإنسان وفقره وذله للحكيم الخبير

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٦٦) ط. التوفيقية.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/٢٧٩) ط. التوفيقية.

جَلَّالَهُ، وما سلك العابدون إلى ربهم طريقاً أسرع ولا أرحب من التفكير، إنه يعرقل عمل الشهوات في القلب ويدفع أهواء النفوس وقد قيل: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكير.

٦- التفكير زاد الدعاة والمصلحين؛

حينما تستمر جولات التفكير ووقفات الاعتبار، فإنها تحدث في القلب رقة وإخباتاً لما ينطبع من مشاهد العظمة والقدرة والقهر التي تطرد دواعي الكبر والعجب وتستتبت بذور الذل والتواضع وإن كانت حاجة جميع المؤمنين إلى التفكير ملحة، فإن حاجة الدعاة إليه أكبر؛ لأنه يمد الداعية بزاد روحي يؤهله لاستحقاق مدد من الله وعون وحفظ ونصرة وتأييد، إنه من خلال التفكير يصل إلى مواطن خلل في ذاته فيقوم بإصلاحها ويعدل مساره وفق الدليل الصحيح الصريح.

٧- التفكير يقود إلى توحيد الله؛

حين تتفكر في خلقك وخلق ما حولك فإن هذا التفكير يقودك إلى نتيجة حتمية هي أعظم قضية في هذا الوجود وهي توحيد الله عَزَّجَلَّ وأنه لا إله إلا الله قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿﴾ [البقرة: ١٠-١١]. وقال تعالى: ﴿ سَرَّيْهِمْ أَئِنْتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

أهمية التفكير عند السلف

كان السلف الصالحون أصحاب قلوب يقظة واعية، وما كانت أوقاتهم تضيع سُدى، بل انشغلت قلوبهم وعقولهم بالتدبر والتأمل والتفكير فازدادت بذلك بصيرة وفهماً، ونوراً وهداية وعلمًا، ورسخ اليقين والإيمان في قلوبهم وصاروا أئمة في الدين،

وهداة مهتدين، تطيب المجالس بمجرد الحديث عنهم؛ فكيف برؤياهم والجلوس معهم والسماح منهم؟!

لقد كان التفكير يستغرق منهم وقتاً طويلاً ويسيطر على عقولهم وقلوبهم فتنتطق حينئذ بالحكمة وتفيض بالدمعة، وتمتلئ بالخشية.

قال يوسف بن أسباط: قال لي سفيان بعد العشاء: ناولني المطهرة فناولته فأخذها بيمينه ووضع يساره على خده فبقى مفكراً فتمت وقمت وقت الفجر فإذا المطهرة في يده كما هي فقلت: هذا الفجر قد طلع فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أفكر في الساعة^(١). وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم أن التفكير يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر ويدعو إلى تركه^(٢).

وقال الحسن البصري كذلك: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب^(٣).

قال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العباداة.

وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتحلي القلب.

ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة، يقول ابن القيم: وهذا لأن الفكرة عمل القلب والعبادة عمل الجوارح والقلب أشرف

(١) «العظمة» لأبي الشيخ (١/٣١٨) ط. دار العاصمة.

(٢) «الحلية» لأبي نعيم (٢/١٣٤).

(٣) «العظمة» لأبي الشيخ (١/٣٠٢).

من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح، وأيضاً فالتفكير يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد، فإن التفكير يوجب له انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتمييز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها، والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه^(١).

ولقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعبد في خلوة تامة في غار حراء الليالي ذوات العدد وذلك قبل نزول الوحي، وهذه الخلوة توفر صفاء للقلب والعقل والذهن والخاطر وتساعد على جمعية القلب وعكوفه على الفكر الدقيق العالي، والتدبر والتأمل الصافي وهذه الخلوة وذلك التعبد من أهم سمات العظماء الذين يؤثرون ويكونون أئمة في الخير والهدى روى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحنث في غار حراء الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء^(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا بد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكيره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه وما يختص به من الأمور التي لا يشكره فيها غيره فهذا يحتاج فيها إلى انفراد بنفسه إما في بيته كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته يكف فيها بصره ولسانه، وإما في غير بيته^(٣).

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٠).

(٢) رواه البخاري برقم [٣]، ومسلم برقم [١٦٠].

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤١٠) ط. العبيكان.

أنواع التذكر وأعلامها

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: أعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله فهو أنواع:

الأول- الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة قال بعض السلف: أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً.

الثاني- الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها على أسائه وصفاته وحكمته وإحسانه وبره وجوده وقد حض الله عباده على التفكير في آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك.

الثالث- الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع- الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل وهذه الفكرة عظيمة النفع وهي باب لكل خير وتأثيرها في كسر النفس الأمانة بالسوء ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانبعثت وصار الحكم لها، فحيى القلب ودارت كلمته في مملكته وبث أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس- الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه، فالعارف ابن وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبداً، قال الشافعي: صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى

حرفين: أحدهما - قولهم: الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك، وذكر الكلمة الأخرى - ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل (١).

مجالات التفكير

للتفكير مجالات تشري القلب بالحكمة، وتملاً النفس تعظيماً وإجلالاً لله العزيز الحكيم جَلَّ جَلَالُهُ، وبالحدِيث عنها تحشع النفس ويرق القلب ويلين الفؤاد ويزيد الإيمان ويرسخ اليقين وتعظم الثقة بإذن الله جَلَّ جَلَالُهُ ومن هذه المجالات ما يلي:

أولاً - التفكير في عظمة الله وتوحيده:

ليس لهذا الكون إلا رب واحد هو الذي يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويعز ويذل، ويقضي في خلقه بما شاء، ويحكم فيهم بما يريد، ولا راد لقضائه ولا منازع لحكمته: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾ [الإخلاص]. إن الله أحد في ذاته أحد في صفاته أحد في أفعاله ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء، وهو رب كل شيء، لا نظير له ولا ند له ولا كفاء له، لا رب غيره ولا إله سواه، إنه لو كان للكون إلهان لفسد كل شيء في هذا الكون، ولحصل الخلل التام الذي يؤدي إلى هلاك هذه الحياة وفنائها قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ (٢٢) لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝ (٢٣)﴾ [الأنبياء: ٢٢-٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۝ (١١) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ (١٢)﴾ [الأنبياء: ٩١-٩٢].

هل هناك أحد خلق الخلق غير الله؟! هل هناك أحد يملك الأحياء والإماتة والنفع والضرر والإعزاز والإذلال إلا الله جَلَّ جَلَالُهُ؟! هؤلاء الناس من خلقهم؟! من أوجدهم من عدم؟! ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُونَ ۝ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝ (٣٦)﴾ [الطور: ١٧٩].

(١) «الداء والدواء» ص [٢١٦-٢١٧] ط. دار ابن رجب.

إنه لا يملك أحد في العالم، بل لا يملك الخلق كلهم ولو اجتمعوا أن يخلقوا ذبابة واحدة، إي والله لا يستطيعون ذلك مهما كانت إمكانياتهم واختراعاتهم إنهم عاجزون تمام العجز عن ذلك وسوف يبقى عجزهم دائماً، فإذا كان كل الخلق عاجزين عن خلق ذبابة واحدة؛ فكيف بهذا الكون العظيم الذي يحوي من الدقة والجلال ما يبهر المتفكرين فيه؟! كيف بهذا العالم كله بما فيه من مخلوقات وكائنات لا يعلم عددها إلا الذي خلقها جَلَّ جَلَّالَهُ؟! ألا فلتذعن القلوب بالعبودية لخالق كل شيء، ألا فلتنقذ العقول الواعية أصحابها من دركات الكفر وضلالات الشرك والانحراف؟! إنه الله وحده الذي يخلق ويرزق: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَجِعُوا لَهُۥٓ اِنَّكَ الَّذِي تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوْا ذُبَابًا وَّلَوْ اَجْتَمَعُوْا لَهُۥٓ وَاِنْ يَسْئَلُوْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوْهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوْبِ ﴿٧٣﴾ مَا فَكَّرُوْا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ اِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]. الله هو الخالق لكل ما في الوجود، وهو الرزاق لكل مخلوق وموجود، قال الملك العزيز الرحيم الودود: ﴿اللّٰهُ خَلِقَ كُلِّ شَيْءٍ وَّهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيْلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢]. قال الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ وَاَلْاَرْضِ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَاَنفِئُوْا نَفْسَكُمْ مِّنْ غَلْوٰتٍ تَكُوْنُ لَكُمْ اَعْيُنٌ يَّرٰىوْنَ لٰكِن لَّا تُفْقَهُوْنَ وَاَنْتُمْ عَلٰى اَشْيَآءٍ لَّكِن تَتَوَكَّلُوْنَ ﴿٣﴾﴾. والخالق وحده هو الذي يستحق أن يعبد، وأن يعظم وأن يمجد، وأن يطاع وأن يوحد، وكل من أعرض عن عبادة الله كان من الهالكين الكافرين الذين عموا وطمسوا، وخسروا وضلوا، ألا ما أسفه وما أتفه تلك العقول التي عبدت مخلوقاً وضلت عن عبادة خالق السماوات والأرض؟! ما أخس تلك العقول التي ارتضت العبودية لغير الله!! أهذه الآلهة تملك لنفسها نفعاً أو ضرراً؟! هل تملك أن تميت وأن تحيي وأن تسعد وأن تشقى؟! وهل ادعى أحد من هذه الآلهة أنه خلق السماوات والأرض؟! والناس أجمعين؟! يا عباد القبور والأضرحة، يا عباد عيسى وعزير، يا عباد الأحجار والأشجار «إله مع الله»؟! هل أحد منهم يغيث ملهوفاً؟! أو

يسمع دعاء مضطر أو ينجي غريقاً؟! قال عَزَّجَلَّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: ٦٢].

الله هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وهو الغني عن خلقه، وكل خلقه فقراء إليه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فَاتِحَةُ: ١٥].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

وفي الحديث القدسي قال ربنا عَزَّجَلَّ: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»^(٢).

ومن تفكر في عظمة الله اندهش عقله، وخشع قلبه، وتضعف فؤاده؛ لأن عين البصيرة لو تفكرت لرأت كل الجلال والكمال والجمال في تدبير الملك الحكيم الخبير جَلَّ جَلَالُهُ.

إن هذه السماوات كلها بمن فيها وما فيها من نجوم ومجرات وملائكة لا يعلم عددها إلا الله وسوف يطويها الرحمن كلها يوم القيامة بيمينه ويقبض الأرض كلها بما فيها من جبال ومحيطات وغابات ومخلوقات لا يعلم عددهم إلا ربهم قال رسول الله

(١) رواه مسلم برقم [١٧٩]، وابن ماجه برقم [١٩٥].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٥٧٧]، والترمذي برقم [٢٤٩٥]، وابن ماجه برقم [٤٢٥٧].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض» (١).
وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده» (٢).

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ ذَاتَ مَرَّةٍ عَلَى الْمَنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٦٧]. ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائل بيده يجرها يقبل بها ويدبر! يمجّد الربّ تعالى نفسه: «أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم» فرجف المنبر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قلنا ليخربنَّ به (٣) إن عظمة الله ليس لها منتهى، وأفضل شيء يوقفك على عظمة الله أن تدبر آياته وتفقه معنى كلامه وتعيش مع تلك المعاني متأملاً متفكراً.

والله لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، وكل ما شاء كان وكل ما لم يشأ لم يكن، لا منازع لحكمه، ولا مضاد لقضائه وأمره وهذه أعتى قبيلة عرفت في التاريخ كان لديهم أجساد قوية جداً جعلتهم يتجبرون ويتكبرون ويتفوهون بكلمات فيها الكبر والإعجاب بالنفس والغرور، فجعلهم الله عبرة للمعتبرين وقصة تحكى وتروى كل حين إنهم تجرؤوا واستكبروا وعتوا فأخزاهم الله وأذلهم وعذبهم عذاباً شديداً وكانوا عبرة لكل من تسوّل له نفسه أن يتفوه بمثل قيلهم أو يتجرأ بصنيع كصنيعهم قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَتْ: ١٥]. فأجابهم القوي العزيز الجبار المتكبر جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصِّلَتْ: ١٥]. ثم كان العقاب والعذاب الذي أخزاهم وأهلكهم قال عزَّ جَلَّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ

(١) رواه البخاري برقم [٦٥١٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٥٢٠]، ومسلم برقم [٢٧٩٢].

(٣) رواه مسلم برقم [٢١٤٩]، وأحمد (٧٢/٢)، وابن أبي عاصم في «السنن» [٤٥٦].

نَحْسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُصْرُونَ ﴿١٦﴾ [فَصَّلَتْ: ١٦].
 وفي سورة الحاقة قال الله تعالى عنهم: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا أَهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَيُّنَةَ آيَاتٍ حُسُومًا فَفَرَّى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ [الْحَاقَةُ: ٦-٨]. لما ظنوا أنهم أقوى شيء عذبهم الله بأضعف شيء وهو الهواء ليعلموا وليعلم كل متعبر جبار أن الله أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم وأعلى من كل ظالم كفار.

وهذا فرعون الذي نطق بكلمة ما عرفت عن طاعة قلبه ولا بعده إنه تجرأ بكلمة ترجمت حجم الكفر والكبر الذي في قلبه، وبينت كم في هذه النفس من خبث وغرور قال الله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٣٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٣٤﴾ فَكَانَ الْعِقَابُ الرَّادِعَ الْمَذَلَّ الْمَخْزِي الْمَهْلِكُ الْمُرْدِي: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٣٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٣٦﴾ [التَّوْبَاتِ: ٢٣-٢٦]. قال هذا الكفور المغرور لمن استخفهم فأطاعوه ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ وَمَصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴿٥١﴾﴾ [الزُّحُرُفِ: ٥١]. فأجرى الله الماء من فوقه وأغرقه وأهلكه وجعله عبرة باقية وعظة رادعة، ولا زال جسده موجوداً حتى هذا الآن منذ أن غرق فعليه اللعنة والمقت والشنان قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾ ءَأَكْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنَّاكَ لِتَكُونَ لِمَن خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٠-٩٢﴾ [يُونُسَ: ٩٠-٩٢].

إن الله بالمرصاد لكل ظالم يميل له، ثم يميل له، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُوا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هُودَ: ١٠٢]. (١)

ومن عظمة وجلال الملك جَلَّالَهُ اندكاك الجبل لما تجلى له سبحانه وسقوط موسى الكليم مغشياً عليه من هول ما رأى وجلال ما شاهد، وذلك حينما طلب موسى من ربه أن ينظر إليه فأعلمه الله تعالى بأنه لا يستطيع ولا يقدر أن يرى الله؛ فإن مخلوقاً في هذه الدنيا لا يقوى أبداً على رؤية الله ولكن رؤية الله في الجنة هي أعظم نعيم لهم فيها ولكي يفقه موسى هذا المعنى بين الله له أن الجبل لا يتحمل أن يتجلى الله له، فلما تجلى الله للجبل ساخ في الأرض من هيبة الله وعظمته سبحانه قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]. قال الحافظ ابن كثير: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر. ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال: تراباً. ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ قال مغشياً عليه قال: لأن هذا قرينة تدل على الغشي وهي قوله ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات (١).

ثانياً - التفكير في مخلوقات الله:

وأول المخلوقات وأعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها وأعلاها وأرفعها هو عرش الرحمن وقد وصفه الله تعالى في كتابه بأنه عظيم ومجيد وكريم فقال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [البقرة: ١١٦]. وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿[البقرة: ١٤-١٥]. هذا العرش هو أول المخلوقات كما قال بذلك جمهور العلماء (٢).

(١) «تفسير القرآن العظيم» باختصار (٣/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٢٨٩) ط. الريان.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هُود: ٧]. يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وعرشه حينئذٍ على الماء وهذه أو الحال أي خلقها في هذه الحال فدل على سعة العرش والماء للسماوات والأرض وفي الصحيح عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»^(١)، وأصح القولين أن العرش مخلوق قبل القلم لما في السنن من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أول ما خلق الله القلم قال: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٢). وقد أخبر أنه قدر المقادير وعرشه على الماء وأخبر في هذا الحديث أنه قدرها في أول أوقات خلق القلم فعلم أن العرش سابق على القلم والقلم سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة^(٣)، والعرش هو أثقل المخلوقات قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجويرية: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله ويحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»^(٤).

ومن حول العرش ملائكة يسبحون الله وهناك ملائكة تحمل العرش يسبحون بحمد الله ويستغفرون للمؤمنين قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [التين: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ

(١) رواه مسلم برقم [٢٦٥٣].

(٢) رواه أبو داود برقم [٤٧٠٢]، والترمذي برقم [٢١٥٥]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٢٠١٨].

(٣) «مختصر الصواعق المرسله» ص [٣٥٢] ط. دار الحديث..

(٤) رواه مسلم برقم [٢٧٢٦].

تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿ [تَعَاوَى: ٧]. وفي السماوات السبع ملائكة كثيرة جداً جداً لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم يسبحون الله ليلاً ونهاراً لا ينقطع تسييحهم ولا تنقطع عبادتهم لله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التَّحْوِيلُ: ٦]. ويبين لك عظمة هذا العدد الذي لا يحيط به ولا يعلمه إلا خالق السماوات والأرض ما رواه البخاري ومسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حديث الإسراء: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم»^(١)، في كل يوم يحج إلى هذا البيت الذي هو في السماء السابعة والذي هو فوق الكعبة الأرضية بحيث لو وقع يقع عليها يحج إليه كل يوم من أيام الدنيا سبعون ألفاً من الملائكة، فانظر كم يكون عدد الداخلين إليه في سنة وفي ألف سنة وفي عمر الدنيا كلها؟! ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الْمَدَّائِرُ: ٢١]. وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إني أرى ما لا ترون أظن السماء وحُق لها أن تنط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى»^(٢).

وتأمل هذا العدد الضخم الكبير في هؤلاء الملائكة الذين يأتون بجهنم يجر ونها يوم القيامة كما في صحيح مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»^(٣).

وهذه السماوات في الكرسي كحلقة من حديد ألقيت في صحراء واسعة شاسعة وقد قال الله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٥٥]. وهذا الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي، كفضل تلك الفلاة على

(١) رواه البخاري برقم [٢٣٠٧]، ومسلم برقم [١٦٢].

(٢) رواه الترمذي برقم [٤٣١٢]، وابن ماجه برقم [٤١٩٠]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٢٤٤٩].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٨٤٢].

تلك الحلقة^(١). وتأمل هذه السماء كم فيها من نجوم وكواكب ومجرات، وكم بينها من مسافات من الذي يدبر أمرها ويرعى سيرها ومن الذي خلقها وفطرها؟ إنه الله جلَّ جلاله وكل هذه النجوم تقع فقط في السماء الدنيا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [المنازل: ٥]. وقد جعل الله هذه النجوم زينة للسماء وعلامات يهتدي بها السائرون في الصحارى والبحار ورجوماً للشياطين تلك التي تحاول استراق السمع قال الله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ (٦) وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿[الصافات: ٦-٨]﴾. وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُم بِأَلْتَجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الحج: ١٦].

ثم تأمل في هذا السحاب الذي يسير فوقنا كالجبال كيف يسير بقدر معلوم وكيف يتكون وينزل منه الماء الذي به حياة كل شيء ولا تنزل منه قطرة إلا بقدر قدر الله لها، أين تنزل؟ ومتى تنزل؟ ومن ذا الذي سوف ينتفع بها من خلق الله؟ ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]. ثم انظر إلى هذا الهواء الذي نحسُّه ولا نراه ولا يمكن أن تستمر بدون الحياة، ثم إن فيه لواقح للأشجار، وفيه وبه تطير الطيور وتحلق في أفق السماء، ويحمل الطائرات الضخمة وجندياً ينصر به من عباده من يشاء قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نصرتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»^(٢). قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الاحزاب: ٩].

(١) رواه ابن أبي شيبة في كتاب «العرش» (١/٣٠٣)، برقم [٥٨]، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» برقم [١٠٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٢٠٥]، ومسلم برقم [٩٠٠].

ثم تأمل في هذه الطيور التي تحلق في الهواء، بل وفي الطيور التي لا تستطيع الطيران كم هي أنواعها؟ وكم هي أفرادها^(١)؟ وكيف تلحق في الهواء وتسافر المسافات البعيدة ثم ترجع إلى أماكنها التي خرجت منها من الذي هداها؟ ومن الذي يدبر أمرها ويرزقها؟ إنه الله القائل جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [المَلِك: ١٩].

ثم تأمل في هذه الأرض كيف مهدها الله عَزَّجَلَّ وقدر فيها الأقوات والأرزاق، وكيف أنها لو كانت كلها جبال لصارت الحياة عليها شاقة جداً وصارت الحركة عليها عسيرة جداً، وتأمل كيف لم يجعلها الله كلها صحارى ورمالاً أو جزراً متناثرة في المياه، بل نوع الله عَزَّجَلَّ أشكال هذه الأرض، وجعل لكل من الخلق ما يناسبه ويلائمه، وتأمل هذه الجبال كم هي وكيف هي؟ وكم فيها من وديان ومغارات وكهوف ومعادن وكنوز لا يحيط بعلم ذلك كله إلا الله عَزَّجَلَّ وقد جعلها الله عَزَّجَلَّ أوتاداً للأرض ورواسي لها وأودع فيها من المنافع ما لا يحيط بها إلا الله تعالى.

ثم تأمل في هذه الأشجار والنباتات كيف اختلفت أشكالها واختلفت طعومها وألوانها مع أن الأرض التي تنبت فيها واحدة والماء الذي تسقى به واحد فمن ذا الذي نوع بين طعومها وأنواعها؟! إنه الله عَزَّجَلَّ تأمل في أرض زرع فيها قصب السكر وإلى جوارها مباشرة أرض نبت فيها الصبار كم بين هذا وهذا من الفروق والطعم؟

(١) لقد دعيت ذات يوم عند بعض الإخوة فجاءني بكتاب أدهشني جداً وقد كان يستعين به على تربية الحمام فرأيت أنواعاً عجيبة وعديدة وغريبة للحمام ولكل نوع اسم وكنت كلما قلبت الصفحات انصدع قلبي لعظمة الخالق الذي خلق فسوى، وخلق ما لا نعلم وما لا ندري فسبحانه لا نحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه.

قال الله تعالى: ﴿ فِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرَعٌ وَنَجِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنَفْضُلٌ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

[الرَّحْمَانُ: ٤]

ثم تأمل في حياة مخلوق صغير جداً كالنمل مثلاً كيف أنه يتكلم ويتخاطب ويناقش وله لغة علمها الله نبياً من أنبيائه وفهمه إياها إنه سليمان صلوات الله وسلامه عليه، قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمُ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨]. هذا النمل أمة من الأمم تسبح بحمد الله وتسجد له كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَقَرَصَتْهُ نَمْلَةٌ فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأَخْرَجَ وَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأَحْرَقَتْ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَّمِ تَسْبِيحُ: فَهَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ»^(١).

هذا النمل إذا خزن قوته من الحبوب عمد إلى ما كان ينبت منه ففلقه فلقتين؛ لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقه أربعة فإذا أصابه بلل وخاف عليه العفن والفساد انتظر به يوماً ذا شمس فيخرج به فينشره على أبواب بيوته ثم يعيده مرة ثانية ولا تتغذى نملة على غذاء جمعته نملة أخرى فسبحان من خلق وبراً!!

وهذا النحل إذا تأملت في حياته وجدت العبر الكثيرة والآيات العظيمة على قدرة الله جَلَّ جَلَالُهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]. وقد علم الله النحلة النظافة فلا تلقي مخلفاتها إلا خارج الخلية، وفي آخر اليوم إذا أراد النحل دخول الخلية للبيان فيها أوقفوا بواباً على الخلية ومعه أعوان، فإذا جاءت نحلة تريد الدخول شمَّها، فإذا رأى بها

(١) رواه البخاري برقم [٣٠١٩]، ومسلم برقم [٢٢٤١].

رائحة قدرة طردها حتى تنظف نفسها فإذا وجد نحلة تعلقت أرجلها بالقاذورات أقبل
ومن معه عليها فمزقوها إرباباً إرباباً.

ولقد علم الله النحل النظام مع هذه النظافة فهو يصنع الشمع بهذه الأشكال
السداسية الجميلة ولو قمت بقياس أضلاع هذا الشكل السداسي لوجدتها كلها متساوية
فمن علم النحل ذلك وهداه إليه؟!

وذكر صاحب كتاب «الحيوان» أن الحية في الصحراء إذا جاعت ولم تجد طعاماً
نصبت نفسها على هيئة العود القائم فيظنها الغراب خشبة فيقع عليها فتأكله فمن علمها
ذلك وهداها إليه؟!

وهذا الطائر الذي يسمى بالنورس له طريقة عجيبة في أكل حيوانات البحر التي
تعيش داخل المحار الصلب كيف يتغذى بها وهي داخل المحار وكيف يصل إليها؟ إنه
يلتقط تلك المحارة في فمه ويرتفع بها عاليًا في الجو، ثم يلقي بها على الصخور فتتحطم
المحارة ويلتهم النورس جسم الحيوان الطري من داخل المحارة؛ فمن الذي علمه ذلك
وهده إليه؟! إنه الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن عجيب أمر الفأرة أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الإناء فنقص وعز
الوصول إليه وصعب ذلك عليها ذهبت وحملت في فمها ماء وصبته في الإناء فينزل الماء
إلى أسفل ويرتفع الزيت إلى أعلى! فمن أين عرفت أن الماء ينزل إلى أسفل لكي يرتفع
الزيت عليه؟!

ومن الذي علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي الماء فتلد فيه؛ لأنها
لا تلد إلا قائمة وهي عالية فتخاف أن تسقطه على الأرض، فتأتي ماء وسطاً تضعه فيه
فيكون كالفراش اللين والوطاء الناعم؟

ومن الذي جعل للفرس قوة يبصر بها الطريق في الظلمة الشديدة؟ ومن الذي جعل للبومة قوة بصر في الليل الأسود الدامس تبصر به الحشرات على العشب؟^(١).

تأمل في البحار كم فيها من جزر وكم فيها من أسماك، هذه الأسماك كيف تعيش وكيف تحصل أرزاقها؟ من ذا الذي يدبر لها أمرها؟! إنه الله جَلَّ جَلَالُهُ.

انظر وتأمل في الغابات والصحاري كم فيها من حيوانات وزواحف ووحوش وأمم عديدة وأجناس متنوعة، وأشجار كثيفة لا تسقط منها ورقة إلا بعلم الله ولا يعتدي في تلك الغابات حيوان على حيوان إلا بعلم الله وفي يوم القيامة سيقم الله بينها عدله ثم يقول لها: «كوني تراباً» فتكون. كل هذا الخلق العجيب لا تغيب منه ذرة عن علم الله وتقديره وتدبيره جل وعلا قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

تأمل في سطور الكائنات فإنها	من المملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها	ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها	فصامتها يهدي ومن هو قائل
ولله در من قال:	

تأمل في رياض الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابي «وما قدروا الله حق قدره» ط. العالمية وقد قدم له الشيخان الفاضلان الشيخ الحبيب/ محمد حسين يعقوب والشيخ المحدث مصطفى العدوي حفظهما الله وجزاهما الله خيراً.

وقال ابن المعتز رَحِمَهُ اللهُ:

أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل تسكينة شاهدُ
تدل على أنه واحدُ

فيا عجباً كيف يعصى الإله
ولله في كل تحريكة
وفي كل شيءٍ له آية

وقال آخر:

وهذي الصحارى والجبال الرواسيا
سل الليل والإصباح والطيور شاديا
سل كل شيءٍ تسمع الحمد لله ساريا
فمن غير ربي يرجع الصبح ثانيا

سل الواحة الخضراء والماء جاريا
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى
سل هذه الأنسام والأرض والسما
ولو جن هذا الليل وامتد سرمدا

وقال آخر:

ذات الغصون النضرة
وكيف صارت شجرة
يخرج منها الثمرة
أنعمه من همرة
وقدرة مقتدرة
التي جذوتها مستعرة
حرارة منتشرة
في الجو مثل الشررة
أنعمه من همرة
وقدرة مقتدرة
أوجد فيه قمره
كالدرر المنتشرة

انظر لتلك الشجرة
كيف نمت من حبة
فانظر وقل من ذا الذي
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة
وانظر إلى الشمس
فيها ضياء وبها
من ذا الذي أوجدها
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة
وانظر إلى الليل فمن
وزانه بأنجم

وانظر إلى الغيم فمن
وانظر إلى المرء وقل
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة
وقال آخر:

والأرض فيها عبرة للمعتبر
تسقى بماء واحد أشجارها
والشمس والهواء ليس يختلف
لو أن ذا من عمل الطبائع
لم يختلف وكان شيئاً واحداً
الشمس والهواء يا معاند
فما الذي أوجب ذا التفاضل

تخبر عن صنع مليك مقتدر
ويقعة واحدة قرارها
وأكلها مختلف لا يأتلف
أو أنه صنعة غير صانع
هل تشبه الأولاد إلا الوالدا
والماء والتراب شيء واحد
إلا حكيماً لم يُرده باطلا

إن كل شيءٍ من حولك ينطق بالتوحيد والتمجيد لله جَلَّ جَلَالُهُ، كل ما حولك لو
فكرت فيه يدلك على عظمة الله وحكمته وجلاله؛ فاجعل نظرك عبراً، وصمتك فكراً،
ونطقك ذكراً، وقد أفلح والله من اعتبر وتفكر وازدجر وتاب إلى ربه من قريب.

ثالثاً - التفكر في النفس؛

في نفسك - لو فكرت فيها - آيات عجيبة تدل على عظمة من خلقك وصورك قال
الله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٢٠-٢١].
وقال عز من قائل: ﴿ سَرُّهُمْ أَيْنُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾
[فَصَّلَتْ: ٥٣]. تأمل في نفسك، في سمعك وبصرك وجوارحك، تجد العجب العجائب
تأمل في جهازك الهضمي وكيف يحصل الغذاء من خلاله للجوارح والأعضاء وتأمل

جهازك التنفسي والدوري، والسمعي والبصري، والإحساس، والشم وغير ذلك وانظر حجم ما أنت فيه من نعم، وعظمة ما أودع الله في خلقك من أسرار وحكم لا تدريها انظر إلى هذا القلب الذي هو في حجم قبضة اليد إنه ينبض ولم يتوقف عن العمل أبداً منذ أن نفخت فيك الروح إلى هذا الآن، وسوف يظل كذلك حتى آخر لحظة في حياتك لا يتوقف ولا يحتاج إلى صيانة وإصلاح ولا يشكو من الجهد والإرهاق والتعب هل رأيت آلة في العالم بهذه الكيفية العجيبة وهذه الكفاءة الجبارة العالية؟! من ذا الذي يرمى هذا القلب ويحفظه، من ذا الذي يدبر أمره ويسيره ليدق هذا القلب في الدقيقة الواحدة ما يقارب سبعين مرة وفي السنة ما يقارب من أربعين مليون مرة، فانظر كم يكون قدرها في عمرك كله.

وتأمل حالك حين ولدت ضعيفاً عاجزاً ثم نما جسدك شيئاً فشيئاً حتى صرت قوياً تحاصم وتجادل وتثور وتغضب ثم تعود إلى الضعف مرة أخرى ولا بد وذلك حينما ينزل بك الكبر قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الرؤس: ٥٤].

وتأمل كيف جعل الله ماء عينك مالحاً ليحفظ العين من الذوبان والآفات، وكيف جعل ماء أذنك مرّاً ليحفظها من الهوام والبعوض، كيف جعل ماء الفم عذباً لتدرك به طعوم الأشياء. ودعنا نقف مع عضو واحد فقط نتأمل فيه حتى لا يطول بنا المقام تأمل في حال هذه اليد كيف جعلها الله آلة للعبد يعمل بها وسلاحاً يقاتل به، وترساً يصد به عن نفسه، بها تقلب الصفحات، وتفتح النوافذ، وتأكل وتشرب وتكتب، وتمسك بها ما تشاء، وتحمل عليها ما تشاء وتعتمد عليها إذا أردت القيام، وتستند عليها إذا أردت القعود، وبها تعرف الحشن من الناعم، والبارد من الساخن، وعليها تسبح، وبها تعمل وتنتج، فانظر لو سلبتها كم تسلب من المنافع والنعم؟ ولقد جعلها الله خمسة أصابع ولم يجعلها طبقاً واحداً كالصفيحة وهذا يسهل حركتها ويكثر من وظائفها ولو

اجتهد الأولون والآخرون على أن يستنبطوا وضعا آخر لهذه الأصابع غير ما وضعت عليه لم يجدوا لذلك سبيلا، تأمل في أطراف هذه الأصابع تجد تلك الخطوط التي تسمى بالبصمات وكيف أنه لا تشبه بصمة إنسان ببصمة إنسان آخر في العالم برغم أنها خطوط واحدة متشابهة، ومن ذا الذي يقدر على ذلك إلا الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَن تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ [الْقِيَامَةُ: ٤]. ثم تأمل في ظهور تلك الأصابع ترى هذه الأظافر وقد جعلها الله تعالى زينة على رؤوس الأصابع وعمادا ووقاية وليلتقط بها المرء الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع، وبها يتمكن من قشط الأذى عن نفسه، ولو عدم الإنسان الأظافر ثم ظهرت به حكة لا شتدت حاجته إليه ولم يقدّم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة. وهذا في جارحة اليد وحدها؛ فكيف لو تأملت في بقية البدن والجوارح؟! قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطَّارِقُ: ٥]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [الْبَيِّنَاتُ: ٧٧].

ثم تأمل في البشر من حولك كيف تختلف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم ولهجاتهم ولم يتشابه اثنين في الخلق مائة بالمائة قط بل لا بد من فرق بين كل إنسان وآخر وتأمل في اختلاف أصواتهم وألسنتهم تعلم أنه ما خلقهم إلا حكيم خبير جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِخْتَلَفُ الْأَلْسِنَةِ كُمْ وَالْوَنُوكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الزُّمَرُ: ٢٢]. تأمل في نفسك وهي أقرب شيء إليك يمتلئ قلبك بعظمة الله وتوحيده وتمجيده والعبودية لله جَلَّ جَلَالُهُ.

والله در من قال:

أقلها هو ما إليه هداكا

لله في الأفاق آيات لعل

عجب عجاب لو ترى عيناك

ولعل ما في النفس من آياته

إذا حاولت تفسيراً لها أعياك

والكون مشحون بأسرار

ياشافي الأمراض من أرداكاء
 عجزت فنون الطب من عافاكاء
 من بالمنايا يا صحيح دهاكاء
 راع ومرعى من الذي يرعاكاء
 فسأله من ذا بالسموم حشاكاء
 تحيا وهذا السم يملأ فاكاء
 شهداً وقل للشهد من حلاكاء
 دم وفرت ما الذي صفاكاء
 عن عيون الناس من أخفاكاء
 أنواره فاسأله من أسراكاء
 أبعد كل شيء ما الذي أدناك
 بالمر من دون الثمار غذاكاء
 فاسأل لهيب النار من أوراكاء
 قمم السحاب فاسأله من أرساكا
 فسله من بالماء شق صفاكاء
 جرى فسله من الذي أجراكاء
 طغى فسله من الذي أطفأكاء
 فاسأله من ياليل حاك دجاكاء
 فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكاء
 عيناك وانفتحت بها أذناكا
 ومن الذي تنسى ولا ينساكاء
 بالله أغراكاء
 تدري له ولكنه إدراكا

قل للطبيب تخطفته يد الردى
 قل للمريض نجا وعوفي بعد ما
 قل للصحيح يموت لا من علة
 قل للجنين يعيش معزولاً بلا
 وإذا ترى الشعبان ينفث سمه
 واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو
 واسأل بطون النحل كيف تقاطرت
 بل سائل اللبن المصفي كان بين
 قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى
 وإذا رأيت البدر يسري ناشراً
 واسأل شعاع الشمس يدنو وهي
 قل للمرير من الثمار من الذي
 وإذا رأيت النار شب لهيبتها
 وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً
 وإذا ترى صخرًا تفجر بالمياه
 وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال
 وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج
 وإذا رأيت الليل يغشى داجياً
 وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحياً
 هذي عجائب طالما أخذت بها
 ومن الذي تعصي ويغفر دائماً
 يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي
 يامدرك الأبصار والأبصار لا

إن لم تكن عيني تراك فإنني في كل شيءٍ أستبين علاكا
يا منبت الأزهار عاطرة الشدا هذا الشدا الفواح نضح شذاكا
فاقبل دعائي واستجب لرجاوتي ما خاف يوماً من دعا ورجاكا

رابعاً - التفكر في المعاصي وآثارها والطاعات وثمراتها:

المؤمن العاقل اللبيب لا يمر عليه موقف من غير عبرة، ولا يحدث في الحياة أمام ناظريه شيء إلا كانت له فيه عظة، ومن قلب عينيه في حال العصاة ومآل ما هم فيه رأى ثمرات مرة، وعواقب أليمة وحسرات تقطع القلوب في الدنيا قبل الآخرة، ماذا جنى هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي سوى الغم والهلم والكدر وضياح الأعمار فيما لا ينفع ولا يفيد، وتأمل ترى في وجوههم سواداً وفي قلوبهم ظلمة، وفي نفوسهم قلق وحيرة وهذا وغيره جزاء عاجل لمن أعرض عن ذكر الله، واتبع هواه وإذا أرسلت فكرك في الأمم السالفة رأيت هلاكاً لقوم نوح بالطوفان الذي طهر الأرض من رجسهم وكفرهم، ودمدمة على قوم عاد بالريح حتى هلكوا عن آخرهم، وعذاباً على قوم ثمود بالصيحة التي فرقت قلوبهم في أجوافهم وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وترى عذاباً منزلزلاً وحجارة من سجيل تدمر قوم لوط، وترى غرقاً لفرعون وجنوده وخسفاً لقارون ومسحاً لأصحاب السبت وغير ذلك من العقوبات التي حلت بالعصاة ونزلت بمن أعرضوا عن طاعة الله جَلَّ جَلَالُهُ، ولا زالت هذه العقوبات بالمرصاد لكل ظالم فاجر، ولكل معاند لأمر الله تعالى وإليك صوراً مختصرة تجلي شيئاً من هذا المعنى وترجم طرفاً من تلك الحقيقة.

هذا محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان له يد في سجن العلماء وتعذيبهم وعلى رأسهم أحمد بن حنبل يقول الذهبي في ترجمة هذا المذكور: كان يقول بخلق القرآن ويقول

ما رحمت أحداً قط، الرحمة خور في الطبع، فسجن بعد ذلك في قفص حرج [ضيق] جهاته مسامير كالمسال فكان يصيح: ارحموني فيقولون: الرحمة خور في الطبع^(١).

وهذا يوسف بن عمر يقول صالح بن طريف: لما قدم يوسف بن عمر العراق بكيت وقلت: هذا الذي ضرب وهب بن منبه حتى قتله. قال الذهبي: يعني لما ولي إمرة اليمن ثم نقله الخليفة هشام إلى إمرة العراق وكان جباًراً عنيداً مهيباً، ثم إنه عزل عن العراق عند مقتل الوليد الفاسق ثم ضربت عنقه والله الحمد^(٢).

وقال الذهبي في ترجمة «المنتصر بالله» الخليفة العباسي: ورد عنه أنه قال في مرضه: ذهبت يا أماه مني الدنيا والآخرة وعاجلت أبي فعوجلته وكان يتهم بأنه واطأ على قتل أبيه فما أمهل وجلس مرة للهو فرأى في بعض البسط دائرة فيها فارس عليه تاج وحوله كتابة فارسية فطلب من يقرأ فأحضر رجل فنظر فإذا فيها..... فقطب وسكت وقال لا معنى له فألح المنتصر عليه فقال فيها: أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز قتلت أبي، فلم أمتع بالملك سوى ستة أشهر قال: فتغير وجه المنتصر وقام.

قال جعفر بن عبد الواحد: قال لي المنتصر: يا جعفر لقد عوجلته فما أذني بأذني ولا أبصر بعيني.

يقول الذهبي: تحيلوا [يعني الأتراك] إلى أن دسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه فأشار بفصده، ثم فصده بريشة مسمومة فمات منها. ويقال: إن ابن طيفور نسى ومرض وافتصد بتلك الريشة فهلك^(٣).

(١) «السير» للذهبي (١١/١٧٣).

(٢) المصدر السابق (٤/٥٥٦).

(٣) المصدر السابق (١٢/٤٣).

وها هي قرية من القرى قبل وقت من الزمن نقص عددهم نتيجة الحروب التي كانت تقام بين القبائل لأنفه الأسباب فما كان منهم إلا أن فكروا في أن يزيدوا عددهم فاجتمعوا وعقدوا مؤتمراً لهم، وكان قائدهم في ذلك المؤتمر إبليس عليه غضب الله ونعوذ بالله منه، فاتفقوا على أن يرجع كل واحد من أهل هذه القرية فيقع على محارمه، يقع على أخته وابنته ليكثر العدد والحادثة معروفة مشهورة والقرية معروفة مشهورة وهي عبرة وعظة لكل من يعتبر، فما كان منهم إلا أن رجعوا من اجتماعهم فمنهم من رجع إلى أهله فنفذ ما اجتمعوا عليه ومنهم من رضي بذلك ولم يفعل والراضي كالفاعل، ما كانت النتيجة؟ ماذا كان منهم؟ أرسل الله عليهم جندياً من جنوده: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٣١]. يخرج عليهم نمل تقوم النملة فتلدغ الواحد منهم فيذبل ثم يذبل ثم يموت وهكذا واحداً وراء الآخر فما كان من أحدهم إلا أن أراد أن يفلت سرق من أموالهم ما سرق جمع من الذهب والفضة ما جمع ثم أخذه في وعاء، ثم حفر له تحت صخرة من الصخرات، وعلمه بهذه الصخرة وذهب هارباً إلى مكة وبقي في مكة زمناً قيل: إنها عشرون سنة أو أكثر من ذلك وما كان منه إلا أن أرسل واحداً من أهل مكة وما استطاع هو بنفسه أن يرجع إلى هناك وقال: اذهب إلى ذلك المكان وستجد في مكان كذا تحت الصخرة وعاء فاستخرجه واتنني به. وذهب الرجل واستخرج الكنز وجاء به إليه ولم يفتحه ولم ينظر ما فيه، وجاء صاحبه ليفتحه فإذا بنملة على ظهره وإذا بها تقفز على أنفه فتلدغه فجعل يذبل ثم يذبل ثم مات: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢].

وها هو المعتمد بن عباد حاكم بعض ولايات الأندلس ذلكم الشجاع المترف، استعان به حاكم ولاية مجاورة عدا عليها أحد أعدائه فأسرع المعتمد لنجدة ذلك الرجل ورجع الغازي المعتدي مدحوراً لما رأى جيوش المعتمد. هنا انتهت مهمة المعتمد لكنه في ظلام الليل يقوم ليبيت جيوشه في المدينة وحول قصر من استنجد به ويقوم باحتلال

المدينة ويا له من ظلم ويا لها من خيانة! أصيب حاكم الولاية بصدمة عنيفة شل منها، وقبض عليه وعلى والده وأخذت أمواله وأودع السجن وسبيت زوجاته وبناته ثم أخرج من ولايته مهاناً ذليلاً فيقول له أبوه: والله إن هذا بسبب دعوة مظلوم ظلمناه بالأمس ثم يرفع يديه إلى الله قائلاً: اللهم كما انتقمتم للمظلومين منا فانتقم لنا من الظالمين.

ويظل المعتمد في ملكه فترة ينام والمظلوم يدعو عليه وعين الله لم تنم وتجتاحه دولة المرابطين في ليلة من الليالي وتأسره، ويقضي حياته في أغمات في بلاد المغرب أسيراً حسيراً كسيراً وأصبح بناته المترفات اللاتي كن يخلط لهن التراب بالمسك ليمشين عليه أصبحن حسيرات يغزلن للناس الصوف ما عندهن ما يسترن به سواتهن ويأتين أباهن يوم العيد في السجن يزرنه فيتأوه ويبكي وينشد وكان شاعراً فيقول:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً	فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأظمار جائعة	يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية	كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
من بات بعدك في ملك يُسرُّ به	فكأنما بات بالأحلام مغرورا

أيها الإخوة، إنها سنة جارية، وقاعدة في خلق الله سارية، وحقيقة لا تتبدل ولا تتغير أن كل من عصى الله يجد عاقبة ذلك في الدنيا والآخرة، ولن يجني عاص أبداً من وراء معصيته إلا الحسرات والغموم والندم وإذا أردت أن تشاهد ذلك بعينك فما عليك إلا أن تتأمل في أحوال العصاة من حولك ودعك من تلك الظواهر التي يخدعون بها الناس، بل تأمل في حياتهم وأحوال قلوبهم وبيوتهم ترى آلاماً مفرعة، وكربات شديدة، وإنما يكون ضحكهم ورحلاتهم في الغالب هروباً مما هم فيه، ولقد مررت أكثر من مرة بقرب الجامعة فوجدت شباباً ألقى الواحد منهم بنفسه في ماء النيل أو شقن نفسه بحبل

تحت كوبري. وحينها تسأل عنهم تجدهم ممن غرقوا في الشهوات وكانت تلك هي النهاية الأليمة اللهم اهد عصاة المسلمين وخذ بأيدينا ونواصينا جميعاً إلى ما يرضيك عنا.

أما الطاعات فإنها سبيل الأمان والاطمئنان في هذه الحياة، الطاعة هي الوسيلة الكبرى لاستجلاب سعادة الدارين، وإذا تأملت في أحوال الطائعين تجد نضارة في الوجوه ورقة وخشوعاً في القلوب، وحرصاً على نفع الناس وهدايتهم، وتأمل وجوه المصلين بعد انتهائهم من الصلاة تجد نوراً وإشراقاً، تأمل قلبك حينما تتصدق بشيء أو تدعو إلى خير وتنتهي عن شر هذا وعد الله لمن اتقاه أن يسعد في دنياه وأخراه قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (١١٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿ [طه: ١٢٣-١٢٤]. الطاعة هي طريق المصطفين من خلق الله فمن أحبه الله هداه إلى طاعته وأخذ بناصيته إلى رضاه، والطائع ينضم لهذا الموكب الكريم الذي يحوي الطهر والعزة بالله كيف لا وعلى رأس ذلك الموكب أنبياء الله ورسله، والعلماء الربانيون والدعاة المصلحون، فانزل بواديهم فقد صوّت بك حاديتهم، سر على دربهم تنسب إليهم، وجاهد نفسك حتى تألف الطاعة وتستلذ بالطاعة ولا ترضى بها بدلاً ولا تبغي عنها حولاً، فهيا سارع ولا تتأخر، بادر إلى الله قبل أن يحال بينك وبين التوبة، اقتنص الفرصة الآن فلست تدري ما يكون حال قلبك غداً.

خامساً - التفكير في حقيقة الموت والحياة:

هذه الحياة كلها مخلوقة وكذلك الموت مخلوق، وقد قدر الله هذا الموت المخلوق على كل مخلوق، فكل نفس ذائقة الموت، ولن يجلد أحد في هذه الدنيا قط، فالموت حتم لازم لكل حي. هل رأيت أحداً من الناس سلم من الموت؟! هل أخر أحد في عصرك الآن إلى ألف سنة؟!!

ولو أن الدنيا تدوم لأهلها لكان رسول الله حياً وياقيا
ولكنها تضى ويضى نعيمها وتبقى الذنوب والمعاصي كما هيا

العاقلون يعلمون أنهم يعيشون في اختبار وامتحان مدته حياتهم ونهايته موتهم والفوز فيه يكون بالجنة، والخسارة فيه تكون بدخول جهنم عياداً بالله، وهذه الأحداث التي نراها كل يوم من تشييع الجنائز فيها مدكر ومعتبر لمن تفكر واعتبر، هذه الحياة لا تصفو لأحد أبداً فهي مقرونة بالنغص مشوبة بالألم وليس في الناس أحد إلا نزل به بلاء وكم من صحيح أمسى مريضاً، وكم من عزيز صار ذليلاً، وكم من فقير صار غنياً وكم من غني صار فقيراً، وكم من ظالم سلب منه ما كان يملكه، وكم من رجل بنى داراً لم يسكنها، وكم من إنسان ادخر مالاً لم ينتفع به بل انتفع به الورثة من بعده فاستمتعوا هم به وحوسب هو عليه، فيأبها الغافل، تفكر في حالك وخذ أهبتك واستعد للقاء الله فقد دنا أجلك وأنت مسئول عن كل ما جمعت، وكل ما عملت، فهل أعددت للسؤال جواباً؟!!

تذكر قبل أن تندم وإنك ميت فاعلم
ولا تغتر بالدنيا فإن صحيحها يسقم
وإن جديدها يبلى وإن شبابها يهرم

فيا عبد الله، إنما أنت أيام كلما مضى منك يوم قربك من لقاء الله، كلما مضى يوم نقص عمرك واقترب موتك ومع كل نفس قد تفاجأ بلقاء الله وخروج روحك إليه هل عندك في هذا شك؟! يا مأكول التراب غداً هل تشك أنك سوف تموت؟! أتظن أنك لن تسأل عن عمرك فيما أفنيته، وعن مالك فيما أنفقته وعن شبابك فيم أبليت، وعن عملك ماذا عملت فيه؟! أفق أيها الغافل، وتفكر قبل فوات الأوان، وتيقظ قبل أن يقال: مات فلان.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [حَلَاة: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النَّصَل: ١٠٨].

من تفكر في حقيقة الموت والحياة علم أنه ما خلق إلا للعبادة والتزود من الدنيا إلى الآخرة، وأنفق ساعات عمره فيما يفيد ولم يغفل عن ذلك القضاء المحتوم الذي قضاه الله على كل مخلوق.

تزود من الدنيا فإنك لا تدري
فكم من فتى يمسى ويصبح لاهياً
وكم من عروس زينوها لزوجها
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم
وكم من صحيح مات من غير علة
إذا جنَّ ليل هل تعيش إلى الضجر
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

فيا أخي، هذه وصية ناصح مشفق فيا أيها العاقل تب إلى ربك إن كنت عاقلاً، وتقرب إليه بما يرضيه إن كان قلبك واعياً.

أفق من غفلاتك وجهلاتك، واعمل ليوم مماتك، واعلم أن محب الدنيا ومؤثرها على الآخرة هو أشد الناس عذاباً بها، وهو معذب في دوره الثلاث يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين ما يشتهي وفي الآخرة يعذب بما اقترفت يده، وبما أحدثه وجناه في جنب الله وتأمل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٨٥].

فاتح عين الفكر على حقيقة دار فانية تزول وتحول واعلم بأن الآخرة خير وأبقى والجزاء فيها أبر وأوفى، ونعيمها مقيم، وزيادة على الجنة النظر إلى وجه الله الكريم.

أي أخي، أشغل عقلك وقلبك بالفكر فيما ينفعك وتدبر فيما حولك يبصر قلبك حقائق كثيرة تكون زاداً ووقوداً يدفع إلى العمل الصالح، ويحث على الاستعداد ليوم المعاد.

تفكر في يوم القيامة وما يكون فيه، تفكر في النار وعذاب أهلها، تفكر في الجنة ونعيمها الكامل الخالد، تفكر في عظمة الإسلام وبقائه وضعف الباطل معها خدعت به الأنظار، تفكر فإن الفكر غذاء القلب بالإيمان، ونعيم للنفس تخرج به من السامة والملافة، وسبيل قويم لمعرفة حقائق الأمور وخفاياها.

